سجلماسة والسلطة المركزية
خلال العصر الوسيط

أحمد عزاوي
كلية الآداب - القنيطرة

يتناول هذا العرض محطّات من علاقة سجلماسة بالسلطة المركزية من خلال بعض النصوص المصدرية والمراسلات الرسمية :

أولاً - ما قبل عصر المرابطين :

تطوّر وضع سجلماسة خلال هذه المرحلة من عاصمة إمارة مستقلة (القرنان 2، 3) إلى مدينة تابعة لجهات خارجة عن منطقتها (القرن 4) ثم العودة إلى الاستقلال قبل وصول المرابطين إليها (النصف الأول من القرن 5).

فمن المعروف أنّ الفتح الإسلامي غرباً أدّى إلى ظهور أول تجربة لوحدة سياسية كبرى جمعت المسلمين تحت سلطة الخليفة الأموي في دمشق، وأنّ هذه التجربة لم تستمرّ طويلاً، حيث انقسم الغرب الإسلامي الى كيانات مستقلة عن بعضها سياسياً ومذهبياً؛ ومن أقدم الإمارات المستقلّة الإمارة المدرارية الخارجية المذهب (الصفرية) التي تأسّست مع تأسيس مدينة سجلماسة سنة 140هـ (أواسط القرن 8م)؛ كان ذلك بعد ظهور إمارتي برغواطة بتامسنا ونكّور بوسط الريف (حوالي سنة 125هـ)، وقبل ظهور الدولة الإدريسية (172هـ) وتوسيع نفوذها انطلاقاً من وليلي ثم فاس، ومنافستها لإمارة سجلماسة حول درعة وشرق جبال درن (الأطلس الكبير).

احتلت سجلماسة مكانة تجارية هامة في القرنين الثالث والرابع، فقد ذكر الرحّالة المشرقي ابن حوقل الذي زار المدينة سنة 340هـ أنّ مداخيل سجلماسة بلغت نصف مداخيل بلاد المغرب بأكملها، وقال عن ثروة أحد كبار تجارها : «ولقد رأيت بأودغست صكّا فيه ذكر حقّ لبعضهم على رجل من تجّار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيهاً ولا نظيراً، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستُطرِفت»[1].

جعلت هذه الأهمّية التجارية سجلماسة عرضة للتنافس **بين الفاطميين في إفريقية وأمويي الأندلس**، بحيث تعرّضت لهجمات وإخضاع من طرف الفاطميين خصوصاً عندما تلقّب أميرها الشاكر لله بلقب «أمير للمومنين»[2]. متحوّلاً إلى المذهب السني، فتمّ القضاء على الإمارة المدرارية في منتصف القرن الرابع. وعندما انشغل الفاطميون بشؤون المشرق في النصف الثاني من هذا القرن وصل نفوذ أمويي الأندلس في الربع الأخير منه إلى سجلماسة، ودعّموا لحكمها حلفاءهم الزناتيين المغراويين بجعلها ولاية تابعة تتزعّمها أسرة بني وانّودين (بني خزرون).

غير أن نهاية الأمويين في الأندلس مع مطلع القرن الخامس مكّن **أسرة بني وانودين** من الاستقلال بشكل كامل كشأن بقية الإمارات الزناتية التي تقاسمت المغرب مع برغواطة، وهذه الفترة يمكن تسميتها بعصر الطوائف الذي شمل كل الغرب الإسلامي قبل ظهور المرابطين.

ثانيا - الفترة المرابطية :

يظهر أن ثروة سجلماسة ازدادت خلال عصر المرابطين الّذين أصبحوا يتحكّمون في طرق التجارة الصحراوية بين مصادرها جنوب الصحراء مثل أودغست ومحطّاتها في الشمال.

(1) ابن حوقل (كان حيّاً سنة 367)، كتاب صورة الأرض، (ص 96، بيروت د.ت).

(2) لقب كان يتنافس عليه آنذاك الفاطميون وأمويو الأندلس مع الخلافة العباسية، فانضاف منافس جديد في سجلماسة مستغلاً الظروف السيئة التي مرّت بها الدولة الفاطمية في الثلاثينيات، لكنه لم يستطع الصمود أمام قواتها بعد تجاوز مشاكلها.

فبعد وصولهم إليها سكّوا دينارهم الذي يحمل على أحد وجهيه اسم الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني وعلى الوجه الاخر اسم الخليفة العباسي، وتاريخ سكّه هو عام 451[3]، وهذه التبعية للعباسيين كانت رمزية حفاظاً على وحدة الخلافة الإسلامية ورغبة في كسب الشرعية لمواجهة الإمارات التي تتقاسم المغرب ثم إمارات طوائف الأندلس. **وكانت سجلماسة عاصمة للمرابطين** عندما بويع بها الأمير أبو بكر في أول سنة سنة 450[4] قبل انتقال العاصمة إلى أغمات[5]، ثم مراكش التي تأسست سنة 462 على أرجح الروايات وعلى يد الأمير أبي بكر المذكور. ويورد ابن عذاري خلال أحداث سنة 464 إشارة تتعلّق بما حول سجلماسة حيث قال : «**وفيها** (464) **ارتدّت قبائل في القِبلة من جهة سجلماسة من زناتة وغيرهم، فجهّز إليهم يوسف بن تاشفين** [باعتباره نائباً عن الأمير ابي بكر] **عسكراً قوّد عليه محمد بن إبراهيم اللمتوني، فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبائل وقتل المرتدّين ورجع بغنائم كثيرة**» (البيان 22/4).

وذكر ابن أبي زرع عودة الأمير أبي بكر إلى الصحراء عن طريق سجلماسة بعد أن استبدّ يوسف بن تاشفين بأمر المغرب قائلاً : «**ارتحل عن أغمات وأخذ على بلاد تادلا حتى خرج إلى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياماً إلى أن أصلح أحوالها**» (ص 134)، ويظهر أنّ المقصود هي الأحوال الأمنية. غير أنّ هناك خلافاً بين أبي زرع وابن عذاري في تواريخ استبداد يوسف بالأمر، وعودة أبي بكر إلى الصحراء وتاريخ وفاته بها[6].

(3) حسين مؤنس، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، **صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد**، المجلد.2 ع. 1-2. 1954، ص 65 (نقلا عن :

CODERA, Almoravedes, pp. 375- 377.
CASTO Mª DEL REVERO : La Moneda Arabigo - Espanola (MADRID 1933. p. 39 y 155- 156.

(4) ابن عذاري، البيان 14/4 (ط. بيروت 1967).

(5) كان انطلاق العمليات العسكرية من أغمات، وإليها تعود منذ سنة 451 إلى بناء مراكش (الإشارت في البيان 14/4-15، القرطاس 133-134 ط، الرباط 1973).

(6) البيان 22/4-26، القرطاس 134. ولا ندري ما إذا كان موضوع «ارتداد» القبائل المذكورة و«إصلاح أحوال سجلماسة» ذا علاقة بتنازل الأمير أبي بكر ليوسف بن تاشفين عن شمال المغرب دون الصحراء بغضّ النظر عن اختلاف العصبيات حول سجلماسة، أم أنّ حالة الاضطراب مدبّرة من بقايا الحكم الزناتي السابق ؛ ويظهر أنّ سجلماسة خضعت لفترة محدودة للأمير أبي بكر إلى وفاته التي حدثت سنة 468 حسب ابن عذاري (ص 26) أو 480 حسب ابن أبي زرع (ص 135) ؟ وعقب وفاته طالب أحد أبنائه بملك أبيه في المغرب، غير أنّ يوسف بن تاشفين استرضاه وصرفه إلى الصحراء بدون تحقيق مآرب سياسية.

هكذا ارتبطت سجلماسة عموماً بالحكم المركزي في مراكش حتّى إنها كانت من جملة الجهات التي أرسلت إمداداتها لفك حصار الموحدين عنها سنة 524 (عام البحيرة) غير أنّ هؤلاء تمكّنوا من فتحها للاستفادة من مداخيلها في تقوية جيشهم المتّجه لحصار مراكش آخر معاقل المرابطين الذي دام تسعة أشهر خلال سنة 541. أي أنّ سجلماسة مرّت من ثلاث مراحل متفاوتة المدّة الزمنية، الأولى عاصمة مرابطية مؤقتة، ثم تابعة لأمير الصحراء أبي بكر إلى وفاته على الأرجح، ثم ولاية تابعة للعاصمة مراكش وهي المدّة الأطول.

ثالثاً - الفترة الموحدية :

يهمّنا في الفترة الموحدية ثلاثة نصوص : نص للإدريسي، وآخر لصاحب الاستبصار وثالث مقطع من رسالة موحدية :

* تحدّث الإدريسي في مطلع عصر الدولة الموحدية عن سجلماسة في كتاب **نزهة المشتاق** (225 –226) الذي انتهى من تأليفه سنة 548/1153م– فقال عنها : «**مدينة كبيرة، كثيرة العامر، وهي مقصد للوارد والصّادر(....) وبناءاتها حسنة، غير أنّ المخالفين في زماننا هذا أتوا على أكثرها هدماً وحرقاً**». والمعروف أنّه بعد فتح الموحدين لمراكش اندلعت الثّورات ضدّهم في جهات مختلفة من المغرب منها ثورة **ابن هود الماسي** الذي امتدّ نفوذه من ماسة إلى سلا شمالاً وإلى سجلماسة شرقاً قبل أن يتمكّن عبد المومن من القضاء عليه وعلى الثورات الأخرى سنة 544. وقد جعل البيذق **سجلماسة** من بين الجهات المخالفة على السلطة المركزية في هذه الفترة، ويظهر أن الإدريسي يقصد هذه الفترة المضطربة من بداية الدولة الموحدية فيكون قد انفرد بالإشارة إلى ما أصاب المدينة من هدم وحرق.

* ويدلّ على نشاط المدينة التجاري في النصف الأول من العصر الموحدي تنوّع العنصر البشري الوافد إليها للتجارة، من ذلك وجود جماعة من أغنياء **اليهود** حيث قرن صاحب الاستبصار (ص 202) بين هؤلاء في فاس وفي سجلماسة في عهد الخليفة المنصور فقال : «**وأما الآن فهم تجّار أهل هذه البلاد كلّها وأغنياؤها، وخاصة بمدينة فاس فإنّي عاينت منهم من يقال إنّ عنده المال الممدود رجالاً كثيرين**».

* وتزايد العنصر الزنجي القادم من جنوب الصحراء كما يظهر من مقطع رسالة بعثها والي سجلماسة إلى ملك غانة يحتجّ على سوء معاملة التجار المغاربة بأرضه حيث قال : «**وقد بلغنا احتباس مساكين التّجّار ومنعُهم من التّصرّف فيما هم بصدده (.....) ولو شئنا لاحتبسنا مَن في جهاتنا من أهل تلك النّاحية...**»[7].

هذه الأهمية للمدينة كانت تجعلها عرضة للمخالفين على السلطة المركزية كما حدث في عهد الناصر بالنسبة لحملة **بني غانية** القادمين من إفريقية سنة 605 بعد أن اشتدّ عليهم ضغط واليها الموحّدي لمنعهم من العيش في أطرافها، فوصلوا إلى **سجلماسة ونهبوها** (تشير الرسالة الموحدية رقم 60 إلى تحرك بني غانية غرباً، والرسالتان رقم 61.59 عن وضعهم بإفريقية).

وبالنسبة للثوار في المغرب الأقصى كان معظمهم ينطلق من الجنوب وخاصة من جزولة، منهم **الثائر العبيدي** حوالي سنة 601 الذي ادّعى أنه من سلالة الفاطميين وتمكّن من إلحاق الهزيمة بوالي سجلماسة، قال عنه صاحب المعجب (327–328).

«**قصد مدينة سجلماسة في حياة أمير المومنين أبي عبد الله [الناصر] بجيش عظيم، فخرج متولّيها السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المومن فهزمه العبيدي.. وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عود، ولم يزل ينتقل في قبائل البربر... إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس...**».

كذلك بالنسبة لثائر آخر في أوائل عهد المستنصر يدعى الجزولي، ثار بالجنوب واشتدّت وطأته في فترة ضعف السلطة المركزية في أعقاب هزيمة العقاب.

وإذا كانت المصادر التي ذكرت ثورته لم تصرّح بشموليتها لسجلماسة، فإنّ الراجح أنّ نفوذه امتدّ إليها، فقد ورد في بعض الرسائل الموحدية تحديد بلاد جزولة كموطن لثورته[8]، وفي رسالة أخرى[9] ورد ذكر «**قتل الشقيّ الذي نجم بالقبلة**»، والمقصود نفس الثائر ؛ وتتفق المصادر على اعتبار سجلماسة ودرعة من بلاد

(7) أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1 /الرسالة رقم 45 (ط. الدار البيضاء 1995).
(8) نفس المصدر، ج1 /الرسالتان رقم 97، 100.
(9) المصدر السابق، الرسالة رقم 98.

القبلة[10]. وقد بلغت خطورة هذه الثورة لدرجة أنّ الموحدين أقاموا احتفالات بمقتل زعيمها، فقد قال المراكشي : «**رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله**»(329)، كان ذلك سنة 1215/612م.

ويتحدث المراكشي أيضاً عن ثائر آخر من صنهاجة وصل إلى سجلماسة في عهد المستنصر ذاكراً أنّه : «**قتل في سنة 618 بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيما بلغني وهزم بعوثاً عدّة، واستفسد خلقاً كثيراً (...) وكان الذي تولّى قتلَ هذا الرجل والإراحة منه وحسمَ الخلاف الواقع بسببه السيدَ الأجلّ أبا محمد عبد العزيز بن أمير المومنين أبي يعقوب بن عبد المومن بن علي، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها**» (المعجب 329).

وعندما اندلع الصراع المسلّح بين الخليفتين المأمون ثم ابنه الرشيد من جهة والمعتصم بن الناصر المدعّم من مصامدة الجبال من جهة ثانية (بين سنتي 626 و633) أصبحت سجلماسة عرضة للسباق بين الطرفين للاستفادة من مداخيلها من تجارة الذهب خاصة. هذه الحرب الأهلية أضعفت السلطة المركزية الموحدية، وشجعت الحركات الانفصالية في الأندلس وإفريقية وتلمسان وسبتة، بل وفي فاس بظهور الإمارة المرينية فيها. وتَنافسَ على الاستيلاء على سجلماسة بعض الطامعين من الحكّام المحلّيين، والحفصيون في إفريقية، والمرينيون في فاس، والزيّانيون في تلمسان الذين كانت أهمّية تجارتهم مع بلاد السودان عبر سجلماسة أهمّ دوافع انفصالهم عن السطة الموحدية، و لم تعد سجلماسة إلى الحكم المركزي إلا بعد استيلاء المرينيين على عاصمة الموحدين وتحرّكِهم لإعادة توحيد المغرب.

ثالثاً - الفترة المرينية :

استعاد المرينيون سجلماسة إلى الحكم المركزي سنة 672 بعد الحصار واستعمال أسلحة مختلفة أهمها السلاح الناري لأول مرة، وقد وصف ابن خلدون كيفية حصار السلطان يعقوب لها كما يلي : «**نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام**

10) كذلك في رسالة عن السلطان أبي الحسن إلى سلطان مصر المملوكي بعد فتح تلمسان ورد فيها : «**وكنا... منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة ..** (عزاوي : الغرب الإسلامي من خلال رسائله، الرسالة رقم 274، أطروحة مرقونة بكليتي الآداب بالرباط والقنيطرة).

النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النّار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة»[11].

ومن غير المنطق القول أنّ هذا السلاح من إنجاز العصر المريني في وقت لم تكتمل فيه وحدة البلاد **بعدُ تحت** السيادة المرينية، وإنّما هو نتاج الحضارة الموحدية. وقد انتقل هذا الاختراع لاحقاً إلى الإمارة النصرية بالأندلس ومنها إلى الإسبانيين.

1 – من مميزات العصر المريني كثرة حالات التمرّد والانفصال خصوصاً في الجنوب أي مراكش وسجلماسة وما حولهما، وخاصة في فترات ضعف السلطة المركزية، ووجود عناصر منافسة على السلطة، وتدخّل بعض شيوخ المرينيين وقادة المرتزقة النصارى... وهذا ما حدث في **عهد السلطان أبي سعيد** (710–732هـ) والد السلطان أبي الحسن، حيث استغلّ ابنه أبو علي عمر انشغال أبيه بشأن الحملة على تلمسان سنة 714، وعلاقة الخؤولة بينه وبين قائد المرتزقة القشتاليين (العبر 508/7)، ودعم بعض القبائل المعقلية، إلى جانب دعم أمير تلمسان، فتمرّد على أبيه مرتين : الأولى في فاس حتى كاد أن يطيح بملك أبيه سنة 715، والثانية بين سنتي 720 و722 حيث تمرّد بسجلماسة ودرعة وما حولهما وطمع في مراكش.

غير أنّ حليفه الطبيعي أمير تلمسان كان منشغلاً بمحاولات توسيع نفوذه على حساب الحفصيين فلم يجد منه دعماً، بل مال هذا إلى عقد هدنة مع السلطان أبي سعيد (الرسالة 274 / غ إ ص 670)، فانهزم الابن أمام جيش أبيه، ثم عفا عنه وردّه **إلى ولاية سجلماسة مفوّضاً** في أمورها[12].

2 – كانت فرصة استقلال الأمير عمر بسجلماسة من جديد هي بداية عهد أخيه **السلطان أبي الحسن** (731 –752) الذي وثّق علاقاته مع الحفصيين، فساءت هذه العلاقة مع الزيانيين، فحرّكوا عرب المعقل لدعم تمرّد أمير سجلماسة، قال ابن خلدون عن الأمير عمر :

«استخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكَورارين وتمنطت، وغزا بلاد السوس(...) وأعرابَها من ذوي حسّان والشبانات وزكنة حتّى استقاموا على طاعته، وتغلّب على ابن يدّر صاحب تارودانت»[13].

(11) ابن خلدون، العبر7 / 388 (ط. بيروت 1968).

(12) العبر7/ 509.

(13) العبر 7 /508– 509.

وكانت الخطة بين الأمير عمر وأمير تلمسان إشغال أبي الحسن كلما اتّجه لمحاربة أحدهما، فقد وصل جيش تلمسان مرّتين إلى تاوريرت لتخفيف الحصار عن سجلماسة في بداية عهد أبي الحسن، بل تسرّبت فرقة من الزيّانيين إلى داخل سجلماسة لدعم صمودها[14]، قال أبو الحسن في رسالة إلى سلطان مصر المملوكي سنة 738 (أي بعد فتحه المغرب الأوسط وتلمسان) : «**وكنّا في تلك المدّة (...) منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضرّه والإراحة من شرّه ما فيه الصّلاح والفلاح (...) لعثايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب تلمسان، ومساعدته على البغي والعدوان (...) فسهّل الله افتتاحها (...) وذلك بعد تسليم جبل الفتح)جبل طارق(بثلاثة أشهر ونصف...**»[15].

ومن المعلوم أنّ الدولة المرينية عرفت خلال العَقدين الثاني والثالث من القرن الثامن انكماشاً على مستوى خارج المغرب الأقصى، وعرفت فيه تلمسان فترة قوتها الوحيدة في تاريخ بني زيان حيث تمكّنت من فرض سلطتها على وجدة المرينية غرباً ومداومة حصارها على بجاية الحفصية شرقاً، ممّا أدّى إلى خلق تحالف مريني حفصي ضد الزيانيين واجهه هؤلاء بدعم الحركة الانفصالية في سجلماسة بواسطة عرب المعقل الذين كانوا يتحرّكون في المجالات بين الطرفين، ويميلون إلى محالفة بني زيان خصوصاً وأنهم كانوا يراقبون أو يمارسون التجارة بين سجلماسة وتلمسان، إلى أن تمكّن أبو الحسن من القضاء على الحركة الانفصالية سنة 733، ثم محو الإمارة الزيانية من خريطة المغرب الأوسط سنة 737.

3 – هكذا ارتبطت سجلماسة من جديد بالحكم المريني المركزي طيلة عهد أبي الحسن وأبي عنان، إلاّ أنّ أبا الحسن بعد نجاته من الحادثة البحرية ومحاولة استرجاع نفوذه من يد ابنه **أبي عنان**، وصل من المغرب الأوسط إلى سجلماسة مدعوماً بعرب

(14) هذا في الوقت الذي كانت فرقة من الجيش المريني بقيادة أحد أبناء السلطان تحاصر جبل الفتح (طارق) ومعها أمير غرناطة بقواته.

(15) (تتمّة النص) : وفي خلال تلكم المنازلة... لاحت للحائن [الأحمق] التلمساني فرصة... إذ ظنّ أنّا عنه مشغولون، وفي أمر ما عرض من سجلماسة وجبل الفتح معتملون، فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجدّ إلى حصن تاوريرت... فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين في ثلّة من بني مرين... فنكص على عقبه... وعاد ثانية فلم تكن عساكرنا عن طرده وانية، بل ردّته في الحافرة» (الغرب الإسلامي، الرسالة رقم 274 (ص. 671-672).

سويد الهلاليين، وجدّد له أهل المدينة بيعتهم. إلاّ أنّ موقف عرب سويد تغيّر لصالح أبي عنان بعد ممارسة ضغطه على شيخها ونزمار فتخلّى عن أبي الحسن وقد يئس من مصيره، قال ابن خلدون عن أبي الحسن : «**أجفل عنه ونزمار وليُّه في قومه سويد بعدما هدّد أبو عنان أباه عريف بن يحيى** (وكان عاد إلى المغرب بعد كارثة القيروان...) **فآثر ونزمار** رضاء **أبيه فلحق بالزّاب إلى أن انضمّ إلى أبي عنان فيما بعد**»[16].

فتمكّن أبو عنان من إخراج أبيه من سجلماسة، ثم طرده من مراكش بعد هزيمته عند أم الربيع، فلجأ إلى شيخ هنتاتة حتّى وفاته بعد فترة قصيرة وذلك سنة 752/1351م.

هذه الحوادث نجد أصداءها في رسائل متبادلة بين أبي عنان وسلطان غرناطة الغني بالله، كما أوردها ابن الخطيب في ديوان رسائله المسمّى (ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب) التي قمت بدراستها ؛ فقد ورد في إحداها (رقم 332) جواب سلطان غرناطة على رسالة لأبي عنان حول حركته إلى سجلماسة ما يلي : «**ورد علينا كتابكم** (...) **تعرّفون بما كان من وجهتكم التي اتّخذتم فيها الحزم طريقا، والعزمَ مصاحباً ورفيقا** (...) **فلم تقفكم الأطواد وقد سمت صياصيها، وشابت بالثّلج نواصيها** (...) (ولا شكّ انّه يقصد أعالي الأطلس الكبير الشرقي) **وحللتم بسجلماسة حلول الإصراخ والبدار**....**وأعدتموها إلى ما كانت عليه من التّمهيد والقرار، ووفد بها عليكم من سمّيتم من الأشياخ الكبار، ووجوه القبائل الأحرار** [والإشارة هنا إلى شيوخ قبيلة سويد الذين بجانب ابي الحسن][17] **وشملهم صفح مقامكم الرفيع الجانب، وانتظموا فيمن حفّ بكم من الجيوش والكتائب، وأنّكم صرفتم إلى الأحواز المراكشية صدور الركائب**...»[18].

(16) العبر 7/ 594 فقد عاد عريف بن يحيى إلى المغرب في الفترة بين حادثة القيروان والحادثة البحرية لأسباب لا نعرفها واكتفى ابن خلدون بقوله إنه كره المقام في إفريقية، ويظهر أن الأسباب تتعلّق بتوزيع المواقف بينه وبين ابنه موازاة مع توزيع الوضع السياسي بين أبي الحسن وابنه أبي عنان ضماناً لمستقبل وضع قبيلة سويد، فبينما كان يحيى في المغرب قريباً من أبي عنان، كان ابنه في إفريقية ثم المغرب الأوسط يجمع الأنصار حول أبي الحسن خاصة في منطقة الجزائر، ثم رأيناه يشارك معه في معركة شلف، ويتحرك معه إلى سجلماسة، إلى أن يئس من انتصار أبي الحسن، فانسحب نحو الشرق بدعوى أنه لا يريد مخالفة موقف والده المهدّد من أبي عنان ؛ وتغيّر الموقف بعد موت أبي الحسن سنة 752 وصفاء الجوّ لأبي عنان، حيث جدّد ونزمار ارتباطه به وهو في المغرب الأوسط يستكمل فتحه.

(17) راجع معلمة المغرب، ج. 15 / ص. 5194-5196.

(18) ابن الخطيب، ريحانة الكتّاب 1 / ص. 532-535 (ط. القاهرة 1981-1982).

وذكر الغني بالله في رسالة أخرى أنه «تحقّق الآن لدينا ما سنّاه الله لكم من الاستيلاء على تلك الأوطان... وأنّ ركابكم استقرّ أمره بمدينة مراكش...»[19].

4 – هكذا بقيت سجلماسة والجنوب عامّة تحت سلطة أبي عنان، لكن الأمور ستتطوّر سلبياً بعد موته أي بدخول المرينيين مرحلة الضعف خاصة في فترات استبداد الوزراء بالسلاطين، ممّا شجّع أحد أبناء أمير سجلماسة السابق عمر بن السلطان أبي سعيد وهو الأمير عبد الحليم على الطمع في السلطنة بفاس، وكان قد تلقّى البيعة من سجلماسة وتازة وعرب المعقل وقسم من القبائل المرينية. ولّما فشل في حصار فاس أمام استعدادات ومناورات الوزير عمر بن عبد الله الياباني، اضطرّ إلى التقهقر إلى سجلماسة ؛ كانت هذه الأحداث في النصف الأول من سنة 1362/763م.

استأنس عبد الحليم في سجلماسة بقوّة أنصاره خصوصاً عرب المعقل وبدعم أمير تلمسان حتى أنه حاول تجديد الحركة إلى فاس، غير أن وزيرها سبق إلى التحرك نحوه، ثم وقعت هدنة تدخّل فيها بعض شيوخ المعقل، ربّما بسبب حدوث خلاف بين طائفتين كبيرتين في القبيلة هما طائفتا الأحلاف وأولاد حسين (كلاهما من ذوي منصور)، في الوقت الذي كان وزير فاس يسعى لاستمالة إحداهما ؛ قال ابن خلدون : «**كانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف (...) فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف، وتجدّدت بينهما لذلك مفاتنة، وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المومن لرفع ما بينهما من الخرق (...) فلمّا قدم على أولاد حسين دعَوه إلى البيعة والقيام بالأمر، فأبى، وأكرهوه عليها وبايعوه، وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة 764، وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف (...) ثم انكشف الأحلاف وتغلّب** [أنصار عبد المومن] **على سجلماسة (...) وتخلّى له أخوه عبد الحليم، وخرج إلى المشرق، ومات بالإسكندرية بعد حجّه سنة 766، واستقلّ عبد المومن بأمر سجلماسة**»[20].

ما حدث بين الأخوين من نزاع وردت الإشارة إليه في رسالة عن الأمير عبد المومن إلى سلطان غرناطة الغني بالله وهي كثيرة البتر كما توجد في تكملة الإحاطة

(19) الغرب الإسلامي ...، الرسالة رقم 343، أو ريحانة الكتّاب 1 /ص. 281.

(20) العبر 7/ 664-665. ونفس المضمّن نجده عند ابن الخطيب في الإحاطة 161–164، ضمن نصوص قام بنشرها الأستاذ محمد شقور بتطوان.

المذكورة، وتاريخها 19 محرم 764، ومما ورد فيها : «من عبد الله عبد المومن أمير المسلمين (....) إلى السلطان الأجل أبي عبد الله محمد [أي الغني بالله] (...) أمّا بعدَ حمدِ الله تعالى (...) فإنّا كتبناه إليكم (...) من حضرتنا العلية سجلماسة حرسها الله تعالى(....) أعلمناكم بما قيّض الله تعالى لنا من الظّهور (...) والنّصر (...) ولحق بنا في تلك الأيام شيخ الوفاء وليث الهيجاء أبو العباس أحمد بن رحّو بن غانم[21] [كبير شيوخ أولاد حسين من المعقل...] فوعى ما اجتمع عليه الأشياخ من الآراء السّديدة(...) فوافق على ذلك الموافقة التّامّة، واشتدّ في جدّ السّير لأخذ الأحلاف[22]، وكانوا إذّاك بالموضع المعروف بتاصولت من تيريمي بقرب سجلماسة المحروسة، وعند مقابلتهم أولاد حسين [أي حلفاء عبد المومن] (...) خامر قلوبَهم الرّعب (...) فاستصرخوا بأخينا أبي محمد عبد الحليم (أي سلطان سجلماسة) وألحّوا عليه في الخروج إليهم والقدوم عليهم؛ فلم يسعه إلاّ الوفاء معهم بما عاهد الله عليه... قصَدَ بخروجه الصّلح بين الفريقين (...) فبرز الفريقان للقتال يوم السبت [تاسع محرم] (...) فوقعت الهزيمة على الأحلاف، وقُتلوا قتلاً ذريعاً... وتلقّتنا جميع قبائل سجلماسة (...) بالبيعة السعيدة، ودخلنا حضرتنا يوم الثلاثاء الثاني عشر لشهر تاريخه»[23].

وبالرسالة عبارة مبتورة البداية تشير إلى «محلّ أخينا السلطان أبي حمّو وصل الله تعالى ودّه، مما يبيّن الترابط والتحالف بين سجلماسة وتلمسان ضدّ فاس خصوصاً بواسطة دعم القبائل المعقلية. وتحمل الرسالة في النهاية علامة خاصة باعتبار صاحبها سلطاناً وهي (وكُتب في التاريخ المؤرخ)، وهذه مختصرة عن علامة سلاطين فاس التي هي (وكتب في التاريخ المؤرخ به).

غير أنّ الأحلاف الذين فقدوا مركزهم بخلع عبد الحليم استجابوا للتعاون مع وزير سلطان فاس فتمكّن جيشه من دخول سجلماسة في نفس العام أي 764، وبعد قيام السلطان أبي فارس عبد العزيز بفتح تلمسان وإخضاع المغرب الأوسط له بين سنتي 772-774 تدخّل سلطان غرناطة الحليف التقليدي لتلمسان بإحداث انقلاب

(21) هو كبير أولاد حسين من ذوي منصور المعقليين، كانت نفرة قد استحكمت بينه وبين أمير تلمسان بعد أن كان مع قومه فيئة له ؛ قتل في حملة ضد بني زيان سنة 765 (العبر 265/7 -266).

(22) وهم الذين رفضوا نقل السلطة من عبد الحليم إلى عبد المومن وسيتحالفون مع جيش سلطان فاس ضدّه (العبر 664/7 –665).

(23) الغرب الإسلامي، الرسالة رقم 432 مكرر، أو تكملة الإحاطة 161-164.

بفاس، وذلك بدعم أميرين لاقتسام المغرب هما أبو العباس حفيد السلطان أبي الحسن، وعبد الرحمن بن أبي يفلّوسن حفيد عمر أمير سجلماسة سابقا، على أن يكون الأول سلطان فاس والشمال وجهات أخرى، والثاني سطاناً على سجلماسة، وخلال حصارهما لفاس اشترط هذا أن تضمّ إليه مراكش، وتمّ اقتسام النفوذ بعد فتح فاس سنة 776.

واستمر الأمير عبد الرحمن سيّد الجنوب أي جنوبي أمّ الربيع.بما في ذلك منطقة سجلماسة على الأرجح، إلى أن تمكّن سلطان فاس أبو العباس من القضاء عليه سنة 784 وإعادة توحيد المغرب (العبر 7/700-725). عندما حاول محمد بن عبد الحليم الانفصال بسجلماسة ودائماً بدعم تلمسان سنة 786، انقسمت عليه قبائل المعقل ففشلت المحاولة، وعاد أدراجه إلى تلمسان ؛ ويظهر أنّ هذه كانت آخر محاولة من أحفاد الأمير عمر حسب المصادر العربية.

على أنّنا نجد في العَقد الثاني من القرن التاسع الهجري/15م، مراسلات من ملك أركون إلى أمير بمراكش يحمل اسم أبي علي[24]. ممّا يبيّن أن الجنوب عاد للانفصال ثانية، دون أن ندري هل خضعت له منطقة سجلماسة أم لا ؟ فالمدينة حسب الوزّان تعرّضت للتخريب مع نهاية القرن الثامن ربّما بسبب التطاحن بين طائفتي عرب المعقل[25].

ويظهر أن الحركات الانفصالية استمرّت إلى القرن اللاحق (10هـ/16م)، حين كتب الوزّان كتابه متحدّثاً عن **مدن مملكة فاس ومدن مملكة مراكش**، أي أنّ مشكل التمرّد في الجنوب ظل شبه مستمرّ في تاريخ الدولتين المرينية والوطاسية.

(24) هذه الرسائل هي بتواريخ سنتي 1414-1415 /اواسط 817 – أوائل 818، موجّهة إلى أمير مراكش المسمّى أبو علي الذي يبدو ان نفوذه كان يصل شمالاً إلى أزمور، أوردها :

MARIANO ARRIBAS PALAU, Cartas de Fernando I de Aragon A Abu Ali de Marrakus, *TAMUDA*, 1956. sem 2. pp..229-238.

(25) حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها، ص 289 (نشر وزارة الأوقاف 1997). اكتفى مارمول (أواخر ق16/10م) بإشارة عابرة إلى سجلماسة دون الحديث عنها كمدينة ذات أهمّية كما كانت تذكر سابقاً ؛ ولا ندري ما إذا كان يروي حدثاً عنها قبل عصره عندما ذكر اتّجار أهل جبل زيز بالصوف والسمن في فاس وسجلماسة (إفريقيا 278/2، ط. الرباط 1984). أمّا الحسن الوزان الذي ألّف كتابه قبل مامول فقال «سجلماسة الآن خربة تماما، تجمّع سكّانها في القصور وتفرّقوا هنا وهناك في الإقليم كلّه».(وصف إفريقيا ج 2 /128 (1983).

تساؤلان للختم :

الأول، عن أسباب تقلّبات موقف سجلماسة، هل تعود لأسباب سياسية فقط ؟ أم كان لتقلّبات أحوال التجارة والتحركات القبلية دور أساسي فيها ؟ ربّما اجتمعت هذه العوامل لتؤثّر في وضع المدينة.

والتساؤل الثاني، حول الزّمن الذي اندثرت فيه سجلماسة لتحلّ محلّها تجمعات أخرى، هل هو فعلاً نهاية القرن 14/8م حسبما يظهر من كلام الوزّان الذي ربط خرابها بموت من سمّاه «الملك أحمد» الذي يظهر أنه أبو العباس بن أبي سالم المتوفى سنة 796[26] ؟ وهل لعبت التجمعات الجديدة التي عوّضتها دوراً تجارياً مهمّاً، أم أنها تحوّلت إلى الاعتماد على النشاط الزراعي والرعوي أساساً بسبب الفوضى التي عرقلت طرق التجارة منها وإليها ؟

ما يظهر هو أن فترة التحول بالنسبة لسجلماسة واندثار دورها بدأت منذ النصف الثاني من القرن 8 وتعمّقت الأزمة خلال القرن التاسع/15 الذي وصل فيه المرينيون إلى الانحدار الكبير الذي ضاعت خلاله سبتة ومراكز ساحلية أخرى مهمة، وعجزت السلطة الوطاسية عن تدارك الأحوال إلى أن ظهر السعديون.

(26) قال الوزان «وقد استولى بنو مرين على هذا الإقليم (...) إلى أن مات أحمد ملك فاس فثار الإقليم وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة فبقيت خالية حتى يومنا هذ». (وصف إفريقيا 121/2).